اقرأ الجزء الاول في العدد الماضي من :

عطام

قصة ناقد هبط بر عبه من الزرونة الى الحضيض

تتمة القصة

لم اهتم بها ولكنني اهتممت بشيء آخر يدور حولها. ذلك ان الشائعات ذاعت في باريس بأن فيلكس برج — ابا لوسيان — اخذ يعدُّ رواية خاصة بابنه وكتبه. وهذه الشائعة اذا صحت لها شأن كبير . لان فيلكس كان حتى الساعة مقتنعاً بشهرته كمثل تراجيدي. ولم يحاول من قبل ان يكتب رواية تمثيلية . فقد كان في ذلك يختلف اختلافاً كبيراً عن ابنه الذي كان يؤلف معظم رواياته

ولم يطل المطال حتى اعلن رسميًّا بأن رواية فيلكس برج قد اوفت على التمام وان ابنهُ وكتبهُ سيخرجانها حتى انتهى فصل الرواية « لماذا تبكي » . وفصل هذه الرواية لم ينته قبل ربيع السنة التالية. ولكننا في اثناء ذلك سمعنا كثيراً عن مواطن الضعف في الرواية الجديدة. لان امثال هذه الاقوال تذيع ذيوعاً سريعاً

واذ استعيد ذكريات تلك الايام يدهشني حكم لوسيان برج على رواية ابيه . وكيف قبل ان يمثلها . ولكنني اعزو ذلك الى حبِّه الاعمى لابيه واعجابه به. ولا ارى تعليلاً آخر يفي بذلك غير هذا

اني اتصور ذلك الشيخ الجليل الممثل التراجيدي المبدع، جالساً في مكتبه مكبًّا على كتابة رواية تمثيلية خالية من شرارة الوحي. هو جالس يكتب ويمحو ثم يعيد الكتابة واذ يوفق الى عبارة رشيقة يصير لها طرباً ويطيل فيها نظره تصويباً وتصعيداً ثم يعيدها بنطقه الرنان ونبراته الفخمة ويفرح في نفسه لا بد من ان تفوز باعجاب ابني

وها قد تمت الرواية — معان مبتذلة في قصة مبتذلة في اسلوب كله تقليد وابتذال . ولكن الرجل يراها معجزة الفن التمثيلي . فيدعو ابنهُ وكتبهُ ليتناولا طعام العشاء معهُ وبعد ذلك يقرأ لهم هذه الآية

أتستطيع ان تتصور المشهد. أتستطيع ان تتصور ذلك الشيخ المزهوّ بباقي عبارات روايته

العادية بذلك الصوت الفخم الرنان ، والنطق الفصيح الجلي المأثورين عن ممثلي الكوميدي فرنسيز. ثم استطيع ان تصور ابنهُ لوسيان اكمل الممثلين المعاصرين واذكاهم واعمقهم ادراكاً لاصول الفن الكل واصوبهم حكماً ، جالساً هناك يصغي الى والده وكأنهُ في نشوة من سحر الكلام . انهُ يعبد اباه ولذلك يرى ان اباه معصوم . ثم يقف اذ تنتهي الرواية ويلثم عارضي والده ويصرح بأنها آية من الآيات. ويلتفت الى روكسان الذاهلة ويقول لها كأنهُ على المسرح «لقد اتيح لنا أن نصغي الى اول كوميديا فرنسية كتبت بعد ما كتب موليير روايتهُ «تارتيف». فتعاظم برج الاب وقال « ومن هو موليير ؟ »

اما روكسان المسكينة فظنت انها حالمة. وكانت تحترم عقلها احتراماً مكّنها من الحكم على رواية برج بأنها استحقت ان تحتقر. لم يعجبها حبها لفيلكس برج وكانت تجل زوجها لوسيان فلم تدر اهو صادق فيما يقول اوهو يتظاهر بالاعجاب لكي لا يفطر قلب الوالد المسكين ورجحت الامر الثاني فأقبلت هي ايضاً على المؤلف تمدحهُ وتضمهُ في طبقة خاصة فوق موليير

فلما انقضت عبارات الاطراء والثناء اخذ الثلاثة ينظرون في اختيار الممثلين الاكفاء للرواية لكي تكون اعظم رواية مثلت في التاريخ من كل الوجوه

هذا ما حدث على ما علمت بعدئذ . واذا نظرتَ اليهِ بعيون روكسان رأيتهُ مأزقاً ما بعدهُ مأزق. فقد تحققتْ بعدئذ ان زوجها كان مخلصاً في اعجابهِ برواية ابيهِ واطرائهِ لها . عرفتهُ عاقداً نيتهُ على اخراجها ورأت بنظرها الثاقب ان الرواية تفضي الى الخيبة المؤكدة — بل الى ما هو دون الخيبة ، الى السخرية والازدراء ! . وجمعت جرأتها مرة او مرتين محاولة ان تبين في ادب جمّ أن في الامكان اصلاح الرواية في بعض المواقع. ولكن جواب زوجها كان قاطعاً كالنصل : « لا بدَّ من تمثيلها كما هي . ومن يعبث بمعجزة »

فغلبت على امرها . واختير الممثلون وبدأ دور التمرين. وأخذت تتسرب انباء الرواية الى الخارج . وهنا توقف هيرتو قليلاً ليستنجد بزجاجة الكونياك واستأنف قصتهُ قائلاً

كان ميعاد افتتاح الرواية في اكتوبر — ١٢ اكتوبر على الضبط . واني اتذكر هذا التاريخ لانهُ كان يوم موتي. ولم اكن الميت الوحيد في تلك الايام . ففي ٩ اكتوبر — وكان يوم جمعة — توفي استاذي ورئيسي كولان مارتل عن الاتقاد . وذهب هو الى الناقد الاكبر لتكون حياتهُ موضوع نقد. واملي ان تكون رواية حياتهِ قد صادفت استحساناً هناك لانها كانت جديرة بذلك

وطبقاً لما كنت اتوقع عيني مدير جريدة الاكليرور خلفاً صلفي المنظم . وكان ذلك من حسن الكثرة ما بذلت في استحقاقهِ من السهر والدرس والتعب . ومما قالهُ لي المدير : «انك

شاب يا هيرتو ومتحمس. ولكن اذكر ان جريدة الاكليرور ليست حديثة السن. وإنها تدفع قط في نقد الروايات العادية الى فوق ما تستحقهُ من الاطراء والتمجيد. فكن كريماً يا ابني ولكن لا تضيع مدائحك الغالية جزافاً على الروايات المتوسطة

شكرت له نصيحتهُ ووعدت نفسي بالمحافظة على خطة الصحيفة وهي الخطة الوحيدة التي يرضى بها الادب العالي والخلق الكريم. ولكن من اين لي علم الايام واني قبل انقضاء يومين سوف احنث بوعدي حنث روبة وتدبُّر

قلت لك ان كولان مارتل مات يوم الجمعة. ولكني لم اقل لك ان الشائعات شاعت يوم السبت بأن فليكس برج (الاب) كان في النزع. وان الاطباء قالوا ان الموت لن يمهلهُ اكثر من يوم او يومين: وكان المقرَّر ان تكون ليلة الافتتاح لتمثيل روايته مساء الاثنين. فجعل الناس يتساءلون: ترى هل يعيش ليرى ولادتها

وكان قد اكثر من التحدث عن الرواية لاصدقائهِ وانهُ يحسبها آيتهُ الكبرى في حياته الحافلة بالآيات. على ان اعجابهُ بنفسهِ كان لا يحدُّ. فكان هذا الاعجاب مثيراً اعطف الاصدقاء لانهُ كان مبنيًّا على غير اساس، ولان برج كان في اخريات ايامه عليلاً معنى ودماغهُ دماغ شيخ عليل. وكانت انباء مرضهِ ونزعهِ في مقدمة انباء الصحف المسرحية فتتبعناها باهتمام يومي السبت والاحد. فاذا هو يكافح الضعف بعزيمة لا تُفَلُّ لانهُ لابدَّ لهُ من مشاهدة انتصار الرواية ولو من سرير الموت

***

وكنت بعد ظهر يوم الاثنين في داري اتصفح رواية لفتى ناشئ يدعى روستان اذ قرع جرس بابي قرعاً عنيفاً. ولما كان خادمي قد خرج لشراء اشياء فتحت الباب بنفسي فدهشت اذ رأيت على عتبتي آخر من انتظرهنالك — روكسان رنوار

وكانت مضطربة قلقة حزينة. هذا ما رأيتهُ في اللمحة الاولى. اما انا فلا اذكر قط ما احسست حينئذٍ. ولكنني بدوتُ بمظهر الرجل الساكن كالجبل لا تهزهُ العواصف. فسألتها في ادب وهشمة ان تتفضل — ادب طبيب يدعو المريض الى غرفة الاستشارة الطبية. فدخلت وهي تتنفض وارتمت في الكرسي الجلدي الكبير. فلما رفعت البرقع عن وجهها تبينت آثار دموع حول تلك العينين السوداوين الساحرتين. فدهشت لهذا لاني لم اعلم من قبل انها امرأة تستطيع ان تبكي

فبدأت الكلام بعبارة رسمية. فصاحت: لا لا يا جيروم. لا ارى فائدة تجني من زيارتي اذا تحدثت اليَّ كذلك. لقد اتيت لاطلب اليك ان تؤدي لي خدمة — وهي خدمة

كبيرة جداً — لا استطيع ان اطلب اليك قضاءها الا اذا كنت صديقاً . فدع عنك هذه التمة

فمضت على شفتي لما بدأ في كلامها من الصفاقة المبنية على الروية . ودب في شعور مقتها . ولفظرت اليها فرأيت جمالها — هي الآن اجمل مما كانت . وشعرت بشهوتي لامتلاكها فقتها من جديد . واحببتها من جديد . فقلت غاضباً — وأي باعث يبعث في نفسك الاعتقاد باني صديق واني اؤدي خدمة . فقالت — الباعث الوحيد هو أنك احببتني . فقلت : احببتك «مرة»

فلم تبأ بما قلت : ولكن شفتيها ارتسمتا ببسمة فاتنة مغرية . ولا شيء ابعث على سرور امرأة من اعترافك بانك احببتها ولو في الماضي السحيق

فقلت بجفاء — ماذا تطلبين مني . فباحت لي بكل ما تعانيه . قالت ان فيلكس برج في النزع — ولولا عزمهُ على متاع اصداء النصر الذي تحرزه روايتهُ لكان مات من أيام . وان موعد افتتاح الرواية في ذلك المساء . وأن كل من اطلع عليها عرف انها لا قيمة لها قط — الا لوسيان برج فان حبهُ لابيه وعبادتهُ لهُ اعميا بصيرتهُ فلا يرى . وان نقاد الصحف سوف ينقدونها نقداً لاذعاً . ثم قالت : وضعف فيلكس برج يمنعهُ عن مشاهدة الرواية ولكن لا بدَّ لنا من اطلاعه على اقوال الصحف في الغد وهذه وحدها كافية لقتله — كانها مدًى تُنمد في قلبه الخائر . وتوقفت عن الكلام ولكنها ظلت محدقةً بي تحديق استفهام من غير ان ادرك قط مرمى حديثها . فقلت : ان كلَّ هذا مما يؤسف لهُ . لقد كان فيلكس برج ممثلاً متفوقاً . ولكن حق الاسكاف يجب الا يتطلع الى ان يكون صانعاً للاحذية . فقالت : ولكنهُ رجل ينازع وحرامٌ ان يموت كبير القلب . فقلت : يظهر لي ان اكثرنا تموت كبيري القلوب . فقالت : ولكننا نستطيع ان نتقي كسر القلب في هذه الحالة

فحدقتُ فيها غير مدرك ما تقول وقلت كيف يمكن ذلك

- فترددت قليلاً وهي تحدق بي كانها تزنني بميزانها ثم قالت : اذا كتبت جريدة من مقام جريدة الاكليرور مقالاً تمتدح فيه الرواية وتثني على مؤلفها تمكننا من الاكتفاء بعرض هذه المقال عليه دون المقالات الاخرى — فيموت الرجل في غبطة وسلام

فادركت حينئذٍ ما ترمي اليه من قولها . ادركت انها تقترح عليَّ ان اخون مستخدميَّ واماني كناقد وانتهك حرمة التقاليد التي جرى عليها ابناء حرفتي وارمي بشرفي في الحمأة واقوّض بناء مستقبلي بيدي . ولماذا ؟ لانني احببتها يوماً ما . ولماذا ؟ لانها تريد ان تخفف من شوكة الموت على شيخ مزهوٍّ مجنون !

واني لادهش الآن كيف امتنعت عن ضربها لما فهمت بهذا الاقتراح . والمرجح انها رأت في عيني شهوتي لها فمضت في طريقها قائلةً : ليس هذا الطلب طلباً معقولاً . بل هو

طلب غير معقول . واذا انت لبيته علمت انك لا تزال تحبني — وهذا كل ما تبغي معرفته

فضحكت هازئاً — هذا كل ما يهمك ...؟ اذاً انا اصارحك القول : انني احتقرك. فهزّت رأسها قائلة . انك لا تحتقرني وانك سوف تلبي طلبي . واذا فعلت تركت لوسيان برج غداً لاجيء اليك . فلا بدّ من ان يطلقني جرياً على عادته. وحينئذٍ نتزوج. فانني لا ازال احبك ياجيروم

فاخرجت من حنجرتي صوتاً فيه مزيج من معاني التغضب والاستكبار . ولم ألبث حتى رأيتني منتصباً على قدميّ وهي غارقة في الكرسي الجلدي الكبير رافعة اليّ عينيها الساحرتين وعلى ثغرها تلك البسمة المرتعشة المغرية . ثم قالت ظننت اني استطيع ان اسعد من دونك فاخفقت

فضحكت في وجهها « انك تكذبين » . ولم انتبه الاّ وهي في ذراعيّ اغمرها بقبلاتي . ولما عاد اليّ شيء من العقل اخذتها من مرفقها الى الباب وقلت لها اخرجي يكفي الخراب الذي احدثته من قبل . فخرجت من غير ان تفوه بكلمة

***

لا استطيع ان اصف لك الالم الذي عانيته بعد خروجها . قد تقول ان التردد لم يكن سبيلي حينئذٍ. وان خبرتي هذه المرأة اثبتت ضلفها وخيانتها وشدة انانيتها. قد تقول هذه واكثر منه لانك لا تدري ما قوة الشهوة . كل دليل معقول قام حائلاً في سبيل اقتراحها . ولكن اذا دفع الانسان للقيام بعمل غير معقول لم يقم لنواهي العقل وزناً ما . والشهوة في تسع حالات من عشر تنتصر على العقل ولولا ذلك لكانت الحياة كلها سلام — وسآمة ايضاً !

واقتربت ساعة الذهاب الى المسرح وانا لم افض في الامر او على الاقل هذا ما قلته في نفسي . والراجح ان قلبي كان قد قضى وعقلي لا يزال يحاول الدفاع

وكانت الرواية احقر مما كنت انتظر واسخف . قابلها الجمهور بالاحتجاج ومدمدة وتصفيراً ولولا مكانة روكمان ولوسيان برج لما سلم المسرح من مظاهرة عنيفة يقوم بها الجمهور الحانق . وفي الفترات بين الفصل والفصل تكلم زملائي انتقاداً عن عزمهم على « قتل » الرواية ولولا حالتي النفسية الخاصة لكنتُ اقدع منهم لوماً وتقريعاً . لذلك اكتفيت بتذكيرهم بأن مؤلف الرواية ملقى على سرير المرض يصارع سكرات الموت

فضحكوا في وجهي قائلين : اسمعوا هيرتو — يشير بالين وهو يشحذ نصل قلم السموم فتحملت ذلك جهدي ثم صفقت ذرعاً فتركت المسرح طائشاً كأني كنت اصارع الشيطان

وفي برودة تلك الليلة الخريفية حاولت ان استرجع رشدي محاولة اخيرة . فأوردتُ البراهين التي تعارض النهج الذي انا في سبيله: الشرف والواجب وعزة النفس واحترام الاقران وشهرتي الخاصة والعامة وروابط الصداقة التي ترابطني بالناس ومكانتي في دوائر الادب

والاجتماع — كل هذه مرّت امام بصري مرور جيش لجب. وكان لابدّ من انتصار هذا الجيش. ولكنهُ انخذل امام شهوتي لروكسان رنوار التي استحوذت على جسمي ونفسي معاً

وقبيل منتصف الليل ذهبت في هدوء الى مكتبي في ادارة الاكليرور . وهناك في عزم وروية كتبتُ مقالة اثنيت فيها على رواية برج أعظم تاه تستحقهُ رواية على الاطلاق . لم اتردد في القول ولم اتعثر في كيل الاعجاب جزافاً . وختمتها بأن هذه الرواية اعلى ذروة وصلت اليها حياة فيلكس برج الحافلة بالآيات ، وانها لابدّ ان تكفل له مقاماً عالياً بين مخلّدي الادب المسرحي الفرنسي . ودفعت بمقالي الى منضد الحروف وذهبت الى داري واقفلت بابي وبكيت طوال الليل . بكيت لاني كنت اعلم انني انتحرت . وهذه دموعي اذرفها على قبري

اما ما حدث بعد ذلك فتستطيع ان تتصوره . طردت من جريدة الاكليرور طرداً لا رجعة فيه . وثار عليّ حنق اخواني النقّاد لانني خنت مبتهم فصاروا يجتنبوني كما يجتنب المجذوم . وانقلب عليّ اصدقائي كما قدرت كأنهم هم الذين اصيبوا بما فعلت وكأني قاتل لا منتحر

في تلك الليلة تركت روكسان لوسيان برغ وانت اليّ براً بوعدها ، رغم ريبتي في صدقها واذا جوانب القهوة ترنّ بضحكة هستيرية منطلقة من هيرتو . ثم استأنف حديثه قائلاً : ومن الاعيب الشيطان ان فيلكس برج توفي قبل اطلاعه على مقالي المذكور . وهكذا اكون قد انتحرت لغير غرض ما . والحياة حافلة بامثال هذه المفارقات . قلت اني انتحرت لغير غرض ما . والحقيقة اني رغم خسراني كل شيء ربحت روكسان . فلوسيان برج طلقها ليتزوج من ثاليتا — فتزوجتها انا . ولما قال هذا ، حوّل رأسه الى امرأة دخلت من باب القهوة وتقدمت الينا رثة سمينة متهدلة قذرة فوقف هيرتو في أدب واحترام — وقال هذه زوجتي — هذه روكسان — ما اجملها ! فنظرت اليه دهشاً . ولكنني في دهشتي ادركت شدة اخلاصه فيما يقول

ولما خرجت روكسان يصحبها هيرتو التفت اليّ صديقي دي موبري وقال

— انهُ ضحّى بكل عزيز عليه في الحياة لاجل هذه المرأة . فعلهُ من وجه ما عمل نبيل ، عمل كريم ، ولكن انظر كيف عوقب عليه . انهُ متشرّد ، سكّير ، لا يملك مالاً ولا اصدقاء ، بل هو منفيٌّ كبوهو من المجتمع . انهُ حطام رجل لا امل له في الحياة الاّ في هذا الكوباك !

فهززت رأسي متأملاً . وقلت بعد دقائق انك مخطئ . ألم ترَ ذلك الألق في عينيه لما قال « ما اجملها » . انا رأيتهُ واقسم لك ان لهذا الرجل املاً في الحياة اعظم من الكوباك . لقد ضحّى بكل شيء لحبّ هذه المرأة وهو لا يزال يحبها . والعجيب انها لا تزال في نظره الحائر امرأة جميلة . ان هذا الرجل لم يعاقب على عمله بل جُزي عنهُ أحسن الجزاء

فقال دي موبري — احدثُ ايها الشاب ما كنت احسبك في هذه المرتبة من شدة الملاحظة